النشاط الاجتماعي في مصر

الشيخوخة النشيطة

لا يجوز أن تشغلنا الأحداث السياسية في الخارج والداخل عن النظرات الاجتماعية والخلقية التي تقع تحت أبصارنا، فالإنسانية قد تفيد من مثل فردي صالح أضعاف ما تفيد من حدث عام كبير.

وقد استدنا أن ننظر في مصر وفي الشرق عامة إلى مرحلة الشيخوخة كأنها خارجة عن العمر، فهي قوة راحة بليدة وحمول حاو من انتاج، فما يكره الكثيرون منا — والموظفون خاصة — يحالون على المعاش حتى يركنوا إلى هذا الخمول الذي يضعضع صحتهم ويعجل بهم إلى القبر.

وفي هذا خسارة جوهرية على الوطن والإنسانية. خسارة في عنصر التجربة والخبرة التي كسبها هؤلاء الشيوخ وكان من الواجب أن ينفقوها بعد سن التقاعد لينتفع بها الجميع.

ومن يذكرون بالخير في مخالفة هذه العادة الضارة المغفور له أحمد شفيق باشا صاحب الحوليات والمذكرات، فقد دل دائبا على العمل الذي وهب له حياته وهو "التاريخ" حتى لاقى ربه مطمئن الضمير إلى أنه أدى واجبه. وقد كنت من المعجبين لشيخوخة هذا الرجل ونشاطه فنوهت مرة ومرة. وحين أدركته منيته حسبت أنه آخر رجل من طرازه في هذا الجيل وقد مات أحمد زكي باشا وأمين سامي باشا وسواهما من رجال جيل الماضي الذين اشتهروا بالدأب والصلابة على العمل في غير كلل ولا ملل.

ولكن زيارة قصيرة في الأيام الأخيرة للأستاذ محمود خاطر بك أسأل فيها عن صحته حين ظننت أنه مريض أطلعني على أن شفيق باشا وإخوانه نظراء في الجد والدأب، وأن خاطر بك — أمد الله في حياته — نموذج صالح للنشاط المدءوب.

فهذا الرجل في هذه السن المتقدمة وعلى الرغم من ضعف صحته يدأب على جملة مشروعات خيرية وثقافية وصناعية يملأ بها فرغ وقته، بل يجور في الاشتغال بها على صحته وسنه، فوق ما ينفق فيها من ماله ووقته.

وفي الشهر الماضي نشرت الصحف اليومية خبرا صغيرا عن تبرعه بداره في حلوان لتكون مستوصفا للولادة ورعاية الطفل، وقد قص على قصة ذلك المستوصف، وفيها ما يصح أن يروى باختصار. فقد نشأت هذه الفكرة في نفسه منذ سنوات حينما لاحظ أن العناية بالأمومة والطفولة ناقصة في مصر، ورأى أن الإصلاح الاجتماعي الحديث في العالم شديد العناية بهذا الجانب، وحاول مرة شراء مستوصف قائم في شبرا إلا أن صاحبة الدار غالت كثيرا

فى الثمن ، فصبر حتى أتاحت له الظروف شراء منزل مجاور لمنزله فى حلوان عن طريق الشفعة وعندئذ بادر بتنفيذ فكرته وترك داره الأولى لتكون مستوصفا .

هذه الدار كلفته ما يزيد على ألفين من الجنيهات ومساحتها ١٢٥٠ مترا وبها إحدى عشرة حجرة ، ولها حديقة متسعة تضم أجود أنواع الفاكهة المصرية . وقد اقتضى تحويلها إلى مستوصف جملة إجراءات فى عرود ثلاثة من وزراء الصحة هم على باشا ابراهيم ومحمد بك حامد محمود بك ، والأستاذ عبد الفتاح الطويل ، وكان لكل منهم فضل خاص وجهد ذاتى فى سرعة إنهاء الإجراءات الحكومية المطولة .

ثم كان افتتاح هذا المستوصف فى يوم عيد الميلاد النبوى فى احتفال ضم كبار موظفى قسم رعاية الطفل حيث قام الأطباء بعملية الختان لستين طفلا بين عزف الموسيقى . وكان خاطر بك يقدم لكل طفل عقب ختانه هدية من الحلوى فى غلاف مزركش كما وزع الحلوى والسندويتش على فقراء حلوان ، وتبرع لمطاعم الشعب بعشرة جنيهات لهذه المناسبة .

وحسبت أن الجانب الخيرى الاجتماعى يستغرق نشاطه فى المستوصف والمدرستين اللتين أعدهما وتبرع بهما والمجرات الثانية فى مستشفى المواساة التى تحمل اسمه وقد أدى تكاليفها . غير أنى رأيت الرجل المعتكف بسبب المرض يقوم بتنظيم مكتبته الضخمة الثمينة لأنه يعتزم إهداءها للمدرسة الخديوية التى تخرج فيها .

ثم اطلعت على عمل ثقافى آخر يستغرق منه مجهودا ضخما وهو القيام بإعداد وطبع "مختار القاموس" على نسق "مختار الصحاح" المعروف ، فى توسع وإحاطة . وهو عمل تنوء به لجنة ضخمة.

ثم رأيته يهتم بطبع المصحف فى صورة جديدة أنيقة معدلة عن الطبعة الأميرية ، تعديلا هدته إليه خبرته وتجاربه فى فن الطباعة مع طبع تفسير لغريب القرآن على هامشه بقلم الأستاذ مصطفى بك عنانى المفتش الأول للغة العربية فى الجامعة الأزهرية والمعاهد الدينية .

وبعد ذلك كله رأيته يخرج مشروعا ضخما لمسبك الحروف العربية . يحاول فيه تلافى صعوبات وعيوب المسبك العربى الحالى . مع تجميل وتبسيط وتنسيق ملحوظ فى أشكال الحروف وفى أوضاعها وفيما تشغله من الفراغ فى الصندوق والمطبعة والورق . وهو مشروع يحتاج إلى شركة لتنهض به ، كما يعرف ذلك جيدا كل من اشتغل بفن الطباعة . وقد كلفه هذا المشروع رحلات ومحاولات عدة فى ألمانيا وتركيا وسواهما من البلاد المعنية بالطباعة والخط حتى اهتدى إلى الوضع الأخير ، وهو يشهد بالذوق الفنى والدقة المتناهية والصبر الطويل.

* * *

هذا رجل نموذجى من حقه أن ننوه به ، فهو فى عزلته وانكبابه على العمل لا يعنى بتوضيح أعماله أمام أبناء هذا الجيل . وفى التنويه به فضل إبراز القدوة الصالحة والمثل الطيب لمن يريد .